

حوارية الآخر بين النزاعي والوجوه الإنسانية إشكالية ذاتية الوجوه و الدوار الغيبية

الدكتورة إسعاد فايزه زرهوني
جامعة عبد الحميد بن باديس -مستغانم-

الملايين:

إن تحقيق ذاتية الوجود لا يمكنه أن يكون إلا من خلال آلية الحوار التي تجسد كينونة هذا الوجود ، وإنطلاقاً من ذلك فإن هذا الحوار قد يجمع ما في الغيبات لتأكيد الذاتية ويفيدها بذلك من خلال ما هو مقدس في الذاكرة الجمعية ، إذ يعمل هذا المقدس على إرساء قواعد ذاتية الوجود و الحوار الغيبي من خلال الإتصال مع القوى الإلهية ولا يتحقق ذلك إلا من خلال أشخاص أثبتت قدراتهم ذاتيتهم وكيانهم و جعلتهم الذاكرة آليات تتدخل في الحوار مع العالم الغيبي من أجل تحقيق رغبات الوجود الإنساني .

وفي هذه المداخلة نود توضيح حوارية الآخر في ظل الذاتية الوجودية من خلال تقديس الأشخاص في الذاكرة الجمعية مثل الأولياء الصالحين .

الكلمات المفتاحية : الذاتية ، الوجودية ، الحوار، الغيبة ، المقدس ، العالم الدنيوي ، العالم الإلهي، قدسيّة الأشخاص ، القوى الخارقة ، الذاكرة الجمعية .

- أين يكمن المشكل ؟

إن تقديس الأشخاص ظاهرة عرفتها المجتمعات كتجربة للظاهرة الدينية ، ومن ثم فإن الأولياء هم أشخاص أضفت عليهم المخيلة العامة للأفراد قداسة خاصة حتى أوجدهم المجتمع أضرحة يترددون عليها ويقحمونها بعدد من الطقوس و العادات التي يربطونها بمعتقدات متنوعة ، كونها تربط العالم السماوي بالعالم الدنيوي . وعليه فإن هذا الصالح هو ذات موجودة رغم غيابها وقدرة على تجسيد الحوار الغيبي ولكن كيف تعمل الذات الغائبة على تجسيد آلية الوجود وتتدخل في الحوار الغيبي ؟

إن ذاتية الوجود مجال واسع تتأكد حوله مبادئ إثبات الذات، خصوصاً وإن كانت هذه الأخيرة على علاقة بما هو في الدين الشعبي ومرتبطة به .لذلك فإن المخيلة الجمعية للأفراد تعطي مراتب خاصة لأشخاص تعتقد في قدراتهم على ربط ما هو ديني بما هو دنيوي «المجتمع مهما كان قبيلة أو أمة أو حضارة ، لها ميل لتبني أو معرفة ك المقدس أشخاصاً الذين طبيعتهم تتناسب مع ثقافته الحقيقية »¹ لأنهم يمثلون في الذاكرة العامة ذات موجودة وحاضرة في كل آن وزمان، و في كل مناسبة، وبإمكانها أن تكون همزة وصل بين الفرد والعالم الآخر. مما يدفعهم إلى تقديسها وجعلها موضع نعمة ظاهرة ومؤلفة يحاولون استغلالها لأغراضهم الشخصية وتكيفها حسب طبيعة حياتهم . فهم يستمدون منها البركة والتطهر من كل دنيوي ، وهذا حال الأولياء الصالحين الذين يتمتعون ببركة خاصة و التي اعتبرها بيرك «اهبة اللدنية النابضة »².هذه البركة استمدوها من الكرامات التي كانوا يختصون بها جعلت الأفراد يرفعونهم لدرجة القداسة مما يجعل هذا المقدس يعمل على تأكيد ذاتية الوجود و الحوار الغيبي مع العالم الآخر فهو آلية اتصالية تتدخل بين الدين والدنيوي وترتبط العالمين.

وعليه فإن ذاتية الوجود هذه و التي يختص بها الأولياء، جعلتهم موضع ثقة من الأفراد وأصبحوا يتربدون إليهم مرارا وتكرارا للتقرب منهم والحصول على برkatهم وحتى جعلهم وسطاء بينهم وبين الإله في قضاء حاجاتهم الدنيوية ووضعوا لهم نتيجة ذلك فضاءات مقدسة (الأضرحة). حيث أصبحت هذه الأماكن المجال الخاص للولي أين تبرز سلطته وذاته وجوده، وهنا تتجلى بوضوح مفهوم الوساطة التي أعطتها له المخيلة الجمعية . هذه الوساطة التي تتحقق الحوار مع العالم الغيبي ومن خلاله يدخل الفرد في علاقة مع العالم الآخر « يلتمس الناس مساعدة هؤلاء الأولياء ولا يقسمون إلا بهم غالبا ، لسوف يؤدي هذا الإيمان بقدراتهم وسلطتهم إلى استخدامهم ك وسيط حينما يتوجه الناس نحو الله»³ . وهنا تظهر مكانة الولي الصالح في الذاكرة الشعبية ليس كذات قد اختفت بل كوجود مستمر رغم غيابها هذه الذات الحاضرة الغائبة في الوقت ذاته تلعب دور الوساطة ، الذي يجعل منها ذاتا مقدسة «في بسيكولوجية الدين الشعبي الولي لا يعامل ك وسيط عادي بل هو وجود حي روح مستقلة »⁴ ، فهذا الولي يبقى دائما كيانا موجودا «لم تنته القدرات لهؤلاء المدركون بمودهم البيولوجي،

ولم تنقطع صلتهم بهذا العالم و أناسه فال أولياء يظلون أحياء حتى بعد أن تخفي أجسادهم تحت الشرى في أضرحتهم يواصلون التدخل و التوسط عند الله لقاصيدهم من الناس»⁵. وبالعودة إلى الضريح فإنه يجسد المكان الذي يحدث فيه هذا الإتصال مع العالم الغيبي وبذلك فهو مكان مقدس يربط الزائر بالولي من جهة، و بالعالم الآخر من جهة أخرى . ورغم اختلاف أشكال الأضرحة إلا أنها تبقى سيميايا ترمز لشيء واحد هو ربط العالم الدنيوي بالعالم السماوي من خلال الطقوس التي تمارس بداخلها و الشعائر التي تقام للولي الصالح ، ويعتبر هذا الضريح فضاء تاريخيا قبل أن يكون فضاء مقدسا. لأنه يحيي شخصية تاريخية في التراث الشعبي، كما أن هذا الضريح هو رأسمايل رمزي تجتمع حوله الجماعة لأنه من خلاله تجسد مفهوم البركة . هذه البركة التي تمثل «القوة المعجزة أي البرهان الذي يقدمه الشخص لذلك تعتبر شيء لا شخصي مثل المانا عند البدائيين»⁶. وعند النظر إلى شكل الضريح سيميايا فإننا نجد أنه على علاقة مباشرة بقداسة المكان إذ شكله المعماري الذي يتجسد في القبة المكعبية يرمز للعالم الأرضي أو الدنيوي في حين يرمز سقفه المسامي الشكل إلى العالم السماوي

موطن التقوى و الفضيلة لذلك فإنها تستمد قداستها لكونها ذات علاقة معينة بالسماء « فالأضরحة ليست سوى خزانات أرضية للقداسة السماوية »⁷ فهذا الشكل المعماري يبقى قائما لأنه يعني دلالة واحدة هي ربط العالم الدنيوي بالعالم السماوي ، وهو تجسيد للوساطة والإتصال مع الغيب ، التي منحها له الولي الصالح الموجود في هذا المكان . فظاهره الولاية مرتبة خاصة يصل إليها الإنسان بعد المجاهدة فهي التوصل إلى الحقيقة المثلثي ، حقيقة وجود الإنسان هذا الوجود الذي لا يمكنه أن يزول حتى بعد وفاة الولي ويبقى حاضرا في المخيلة العامة، لأنه ذات حاضرة يمكنها الدخول في حوار مع العالم الغيبي ، وفي إطار ذلك يدخل الفرد في علاقة مع هذا الولي ومع المقدس بصفة عامة علاقة نفعية الغرض منها قضاء الحاجة مرتبطة من جهة بالخوف والخشية من هذا المقدس، ومن جهة أخرى بطلب البركة و التقرب من العالم الآخر .«المحتوى التمثيلي لتلك الروابط كان نفعيا بالدرجة الأولى أكثر منها عقيديا وبجثا في أعماق الغيبيات و موسمية أكثر منها زمنية وجودية والعربى كان دائما يتقرب من المقدس أو يتوجه ليس دائما خوفا منه أو إقتناعا بسلطانه ، بل تخوفا منه أو من

الأضرار التي تلحقه بدونه»⁸ ، فهذا الولي رغم غيابه هو ذات موجودة وحاضرة فهو المستمع أو المتمعن و المنجد الذي يحيينه الإنسان في كل مناسبة و حاجة ، ويجد في حضوره هذا وذاته وجودا مستمرا يحمي أحلامه و طلباته غير متحققة، و يجعلها بفعل الوساطة التي يضمنها الحوار الغيبي تتحقق و تتحول من عالم الأحلام إلى عالم الواقع المعاش بدافع الإيمان بقوى خارقة يمكنها تحقيق ذلك «عندما يلتج الشخّص إلى هذا العالم الروحي بإيمان مطلق و عارم يصبح كل شيء ممكناً التحقّيق و بدون الإيمان يتطلّع كل شيء»⁹ . وهكذا فإن الدخول في هذه العلاقة مع الولي تضمن للفرد وصول شكته إلى الخالق و العالم الآخر، فهو يشكل وسيلة إتصالية بالعالم الغيبي «المقدس هو نوع من المبدأ النشيط الذي يسمح للعالم الظاهر بالدخول في العالم المجهول»¹⁰ .

إن آلية الوجود التي تضعها المخيّلة العامة للولي كذات حاضرة تتجلّس من خلال آلية الحوار الغيبي الذي يؤكّد هذه الوجودية . وبالتالي فإنه كون الولي حاضر رغم غيابه و ذات موجودة عند الأفراد في الثقافة الشعبية فإن ذلك مفروضاً بكونه يمكنه الدخول في حوار مع العالم الآخر ، هذا الحوار الذي يجد

فيه الفرد وساطة تمكنه من الإتصال مع العالم السماوي، ويُمكنها أن تتحقق له رغباته التي طالما لم تتحقق ويخفف من شکواه وتشفيه من الأمراض. كل ذلك في فضاء جعله مقدسا لأن داخله يتأكد هذا الحوار الغيبي و تتجسد آلية الوجود لذات قد فرضت نفسها حتى بعد غيابها قادرة على الإتصال بالعالم الغيبي . هذا العالم الذي يصعب الوصول إليه و إختراقه إلا لذوي القدرات الخارقة «في إدراكه للهيروفاني الإنسان له إحساس بوجود قوى خفية و فعالة و التي تتمظهر من خلال شيء أو شخص حيث يكون لهذا الشيء أو الشخص مكسو . وبعد جديد هو القداسة» 11 .

دور المقدس في توليد الوجود :

إن الإقتران بين الشكل و المعنى و إرتباطهما يجعل الفكر يحقق آلية إتصال بين شخصين عن طريق شكليات يجسدتها الوجود الشخصي و الذاتي للولي الصالح الذي يصبح وسيلة إتصال مع العالم الآخر ، وهنا يتجلّى مفهوم الحوار إذ يلعب الحوار دورا أساسيا في هذه العلاقة التناصصية ، ولكن في حقيقة الأمر إن هذا التقديس الذي أعطته المخيلة لهذا الولي ساهم في

توليد وجود ذات هي غائبة وجعلها حاضرة دائما في المخيلة الجمعية، ومن خلال الحوار وفي هذه المرتبة ترتفع جسدية هذا الشخص إلى مقام المقدس وتفقد واقعية غيابها لتصبح وجودا فتكسب وجودا روحيا أو وجودا لقوى غيبية لا مادية . وهنا تحول لامادي إلى المادي، وهنا كذلك يتحول نظام الحوار إلى نظام الإيمان ، إذ هذا الحوار يعطي المشروعية للإيمان بقوى هذا الولي الفوق طبيعية ليتحول الحوار النفعي إلى حوار إعتقادى في قوى خارقة للوجود بإمكانه الإتصال بالإله و التدخل لتحقيق الرغبات و الطلبات .

المواضيع:

- 1 – Jean Cazeneuve ,*Et si plus rien n'était sacré* , institut Perrin,**1991,p198** .
- 2 – نور الدين طوالبي ، الدين الطقوس و التغيرات ، منشورات عويدات ، بيروت ، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1988 ، ص94
- 3 – نور الدين طوالبي ، مرجع سبق ذكره ، ص143
- Ali Aouttah , *Anthropologie du pèlerinage et de la 4 sainteté dans le maraboutisme marocain* , Ibla ,**1995, n°175,p36**
- 5- عبد الغني مندib ، الأضরحة بالمجتمع القروي المغربي ، آليات الوجود والإستمرار ، التحولات الاجتماعية و الثقافية في البوادي المغربية ، منشورات كلية

6- Emil Dermenghem , Le culte des saints dans l'islam maghrébin ,Gallimard , **1954**,p24.

7- Emil Dermenghem , opcit, p34.

8- محمد الطبيي ، العرب ، القرابة ، المقدس و السلطان من الحنفاء إلى الخلفاء ، بحث في إنسنة العرب ، رسالة دكتوراه ، جامعة وهران ، 2000 ، ص.352.

9- عبد الغني منديب ، مرجع سبق ذكره ، ص148 .

10- Abderrahmane Moussaoui , Espace et sacré au Sahara ksour et oasis du sud -ouest algérien , CNRS éd, paris, **2002**,p17.

10-Julien Ries , Traité d'anthropologie du sacré , les origines et le problème de l'homo religiosus ,v1, p19.

